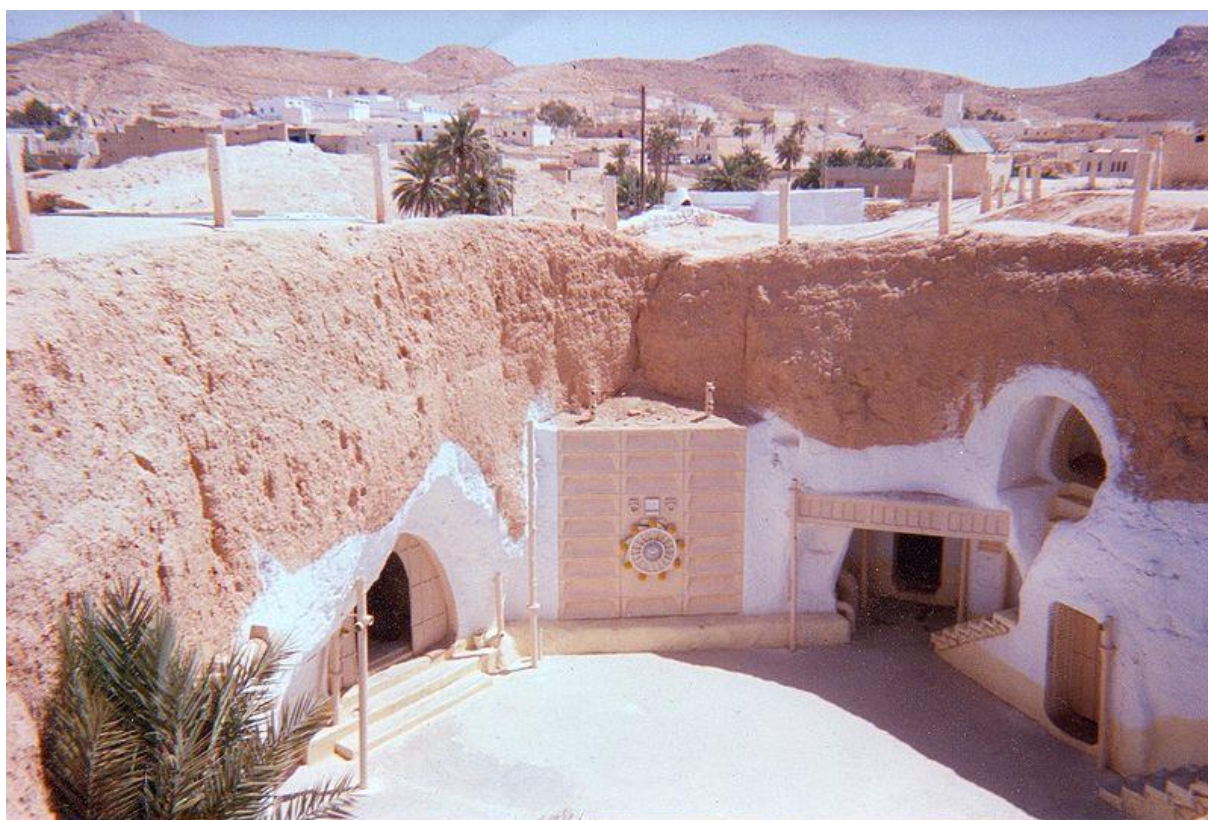


مرآة الحضارة الأمازغية في مدينة مطماطة التونسية

بقلم الباحث: حافظ إبراهيم بورقعة



مطماطة (تونس)

في البداية قد لا ينتبه زائر مدينة مطماطة التونسية (جنوب) إلى البيوت المحفورة تحت مستوى الأرض، فقد يبدو له المشهد للوهلة الأولى كواحة شاسعة ممتدة الأطراف.

لكن بمجرد الاقتراب قليلا من مدخل المدينة، التابعة لولاية قابس (378 كم جنوب العاصمة تونس)، تظهر للزائر بيوتا حفرها أمازيغ تونس قبل قرون.

و"الأمازيغ" هم شعوب أهلية تسكن المنطقة الممتدة من واحة سيوة غربي مصر شرقا، إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا.

وصارت بيوت الأمازيغ في مطماطة اليوم مزارا لسياح يقصدونها من تونس ومن كل أنحاء العالم، فتستهويهم هندستها وجدرانها الترابية وأبوابها القديمة.

تلك البيوت، التي يسميها التونسيون "الحوش الحفري"، لا تزال محافظة على الطراز التي أنشئت به، حتى أنها لا تزال مساكن لحوالي 5 آلاف من سكان هذه المدينة القديمة.



أكثر من 400 سنة

يتردد أن “مطماطة” هو اسم قبيلة بربرية قديمة لم تستطع مقاومة مقاتلي قبيلة “بني هلال”، فهاجر أهلها إلى هذه المنطقة الوعرة في الجنوب التونسي، وحفروا بيوتهم في باطنها، كي لا يراهم أعداؤهم، وحتى يتأقلموا مع المناخ، فباطن هذه الحفر رطب في الصيف ودافئ في الشتاء.

وتُعرف هذه المدينة بطبيعتها الجبلية ومناخها البارد، وأغلب سكانها هم من الأمازيغ، ولا يزال عدد منهم يتحدث اللهجة الأمازيغية، أو كما يسميها التونسيون “الشّلحة”، إضافة إلى اللغة العربية.

وغادر معظم سكّان هذه المدينة الحفر، وانتقلوا إلى العيش في بيوت الحجر والإسمنت في “مطماطة” الحديثة، لكن بعضهم لا يزال يستوطن الحفر، تمسكا بالتاريخ والعادات والتقاليد واللغة الأمازيغية.

على بعد قرابة كيلومترين عن مركز المدينة، يوجد بيت عائلة توفيق بن ناصر، وهو محفور وسط مغارة.

البيت تبلغ مساحته 300 متر مربع، ويتخذ شكلا دائريا تتوسطه ساحة كبيرة، وبه 10 غرف منقسمة إلى طابقين، علوي خاص بتخزين الشعير وبقية المؤونة، وآخر سفلي خاص بالسكن، وتتخذ الغرف لون الطين مع طلاء أبيض في مداخل معظم الأبواب.

عن بيته قال توفيق بن ناصر (51 سنة)، للأناضول، “يبلغ عمره أكثر من 400 سنة، وهو منحوت داخل مغارة في الجبل مميزة بطين اللّازمة (نوعية من الطين الصلب والمتماسك) التي تمنع سقوط البيت”.

وعادة، يستغرق حفر مثل هذه المغارة بين شهرين وثلاثة أشهر، ويبلغ عمقها قرابة 30 مترا.

طوال اليوم، تفتح عائلة “بن ناصر” بيتها للزائرين التونسيين والأجانب، وتسمح لهم بدخول كل أنحائه، بما فيه غرف الجلوس وحتى غرف النوم.

وتابع صاحب البيت: "بيتنا مفتوح للسياح ليتعرفوا على طرق عيش الأمازيغ منذ مئات السنين.. نقدم لهم نمط حياتنا اليومية، ومنها كيفية صناعة الخبز وعملية رحي الشعير، والطرق التي ابتكرها الأجداد لبناء مكان للنوم، إذ كانوا يصنعون ما نسميه بالسِدة (مكان للنوم مبني بالطين على شكل سرير)".

وداخل البيت تقدم عائلة "بن ناصر" وجبة فطور أو غداء مكونة من خبز الشعير، الذين يتم تحضيره داخل البيت، مع قليل من المربى الطبيعية والسمن والزيت.

إكرام في إناء

لا تفرض العائلات، التي تفتح أبوابها أمام السياح، أي مقابل مالي، إذ إمكان السائح التجول وسط البيت والخروج دون دفع أي مقابل مادي.

لكن أغلب من يزورون المكان، ويلاحظون حرارة استقبال العائلة، يضعون مقدرا من المال في إناء موجود فوق جرة عند باب الخروج.

وهو ما علق عليه "بن ناصر" بأن "بيتنا ليس متحفا حتى نفرض معلوما (رسوماً) معيناً للدخول، ولكنني متأكد بأنك مثلما رحبت بالضيف السائح خلال جولته سيكرمك هو أيضاً بالمال".

داخل البيت كان يتجول محمد، وهو جزائري الجنسية، قال للأناضول: "حقيقة زرت الكثير من الأماكن في تونس، ولكن لم أر مثل هذا الترحاب وهذه البساطة.. الأهالي هنا يرحبون بك داخل بيتهم بطريقة لطيفة جداً".

مطماطة هو اسم قبيلة بربرية قديمة والتي سميت المدينة نسبة إليهم. تبعد مدينة مطماطة حوالي 450 كيلومتر من مدينة تونس العاصمة و43 كيلومتر من خليج قابس و 60 كيلومتر من مدينة "مدينين".

يوجد في مدينة مطماطة قلعة قصر جمعة الشامخة والتي تطل على المنطقة الداخلية للمدينة تتبعها الإنحدارات الصخرية القاحلة ومن فوقها الشمس الحارقة. في مدينة مطماطة تعتبر الحفر والفتحات الأرضية الموغلة بعمق داخل الجبال مأوى آخر للسكان الأصليين ضد المعتدين.

هذه الكهوف "والتي تستخدم كمنازل" تتكون من فناء واسع وكهوف صخرية تستخدم كغرف للنوم أو مكان لتخزين الحبوب بالإضافة الى

الممرات التي تتجمع فيها العائلة والتي تشق طريقها بعمق في الصخور اللينة وتصل فيما بينها بممرات.

الوصول الى هذه الكهوف والحياة الكاملة بداخلها من ممرات وما يشبه الغرف يكون عن طريق أنفاق أو سلالم والتي من الممكن ان تزال عند الشعور بالخطر.

أما من الداخل فتلك البيوت الصخرية أو الكهوف والمدهونة جدرانها باللون الابيض الخالص تكون رطبة مع شيء من البرودة الخفيفة في الصيف مما يحمي ساكني هذه الكهوف من الشمس الحارقة في تلك الصحراء القاحلة. بعض من هذه المنازل الجبلية تحول الى فنادق مريحة وفريدة وتجربة مشوقة.

من المؤكد أن طبيعة أرض مطماطة مألوفة عند رؤيتها وذلك بسبب أن في هذه المدينة تحديدا قد تم تصوير فيلم حرب النجوم الشهير والعالمي مما يؤكد انفراد المكان بطبيعته. سميت هذه القرية نسبة الى سكانها من قبائل البربر حيث يعتبر هذا المكان أكبر تجمع لساكني الكهوف.

